المقدمة

مرت قرون طوال والقدماء يتناقلون الأحاديث عن حماد الراوية، وراح اللاحق يضيف أشياء من عنده على ما قال السابق، حتى غدت صورة الرجل أشبه بالخطوط المتقابلة والمتقاطعة التي تتحرك وسط دائرة واسعة الأقطار. ومن هنا خرج الخبر من الواحد ليقع في مجال المجموع، أي إنه ابتعد عن بنائه الأصلي ليصبح نوعاً من الحكاية الشعبية، أو السرد التاريخي غير المبني على وقائع ثابتة.

ثم جاء المحدثون، فتعاظم الأمر لديهم، وتنادوا بالويل والثبور على الرجل، وأصبح إيراد اسمه مرادفاً للتشويه، والإنكار، والرفض، والفساد، والتخريب.. وما إلى ذلك، من العبارات والألفاظ التي كادت تصدىء العقول لتكرارها.

ومع أن هناك من حاول أن يناقش بعضاً من هذه الأخبار الرائجة عنه، إلا أنه سرعان ما يقف محتاراً متعجباً، لما يثيره التشكك في أصل الرجل، وتدينه وعلاقاته من ريب وتساؤلات؟! وهكذا دخلت السياسة في تفسير الحدث، وانعكست تياراتها على معتقده، حتى[1] أصبح يحمل أعباء العصر الذي عاشه، والمرحلة التي انتقل إليها بعد قيام الدولة العباسية.

وها نحن هنا نحاول ـ وهي محاولة يدرك المشتغلون بالأدب والتاريخ، أنها قد تستغرق زمناً لتحقيق نتائجها ـ أن نلملم أطراف القضية،

فنضعها في سياقها الذي مرت به، وذلك بمتابعة الموضوع منذ نشوئه، مارين بجزئياته اليسيرة، بما يحقق الفحص العلمي والتجربة الموضوعية.

إن نبش الماضي وغربلته أمر عسير، بعد أن أطبقت على حماد كل الحدود، فكان الخروج، بنتائج مستنبطة من الواقع، محتاجاً إلى جهد جهيد. وكان مثار الاستغراب أنه رجل كان أول من التفت إلى أهمية الجمع والتصنيف، يحدوه ذوق رفيع وحاسة جمالية متميزة. فقدم للأدب العربي أعز ما لديه وأثمن، إنها المعلقات. لقد كان عاشقاً لأدب العرب ولغتهم، محباً لعلومهم، يجد في كل ذلك لذة ومتعة، حتى بهر من حوله، وشُدّت الرحال إليه. ولم يكن «راوية»، بكل ما تحمل الكلمة من معنى، بل كان أستاذاً ومعلماً، لم يشأ أن يندثر علمه بين جوانحه، فكان يعطي ما وسعه العطاء، ويبذل من وقته وحاله بذلاً سخياً. فكان لذلك نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، علا صوته فوق كل نداء، وتلألأ نجمه وسط الأضواء، ولم تستطع الأيدي أن تطاله، ولا الملكات الأخرى أن تحلق في خياله، فصمت حساده، وانكفأ أعداؤه حتى حين. فلما قلب الزمن له ظهر المجن، ظهرت له فتن وإحن، فتلاشى صيته، وتوارى في طي النسيان ذكره، فاختلط الحابل بالنابل، واشترك معه من يحمل اسمه. فحماد عجرد، وحماد بن الزيرقان، وحماد بن يحيى، وحماد بن عباس، وحماد بن سابور، بل حماد بن سلمة، كل ذلك هم: حماد الراوية؛ فالزنديق هو، والكذاب هو، والسكير هو، والفاسق هو؛ إنها الهاوية، جرته إليها السياسة وعداوة الإنسان للإنسان من أجل مصلحة شخصية، أو منفعة مادية، وتعبيراً عن ماض يراد طمسه، وحاضر يرغب في إعلائه ونشر فضله، حتى وصل الأمر إلى مسخ شبه تام لمآثره وأعماله، ومن ثم شخصيته.

ولا غرو أن يتعرض رجل مثله إلى كل ذلك، فقد كان ممثلاً لتفكير خاص، وطريقة خاصة في التناول والتعبير؛ إنها المرحلة الشفوية التي كان

هو أساسها، والمبدع فيها، فلما جاءت الكتابة، واعتُمد التدوين، كان التفكير غير التفكير والطريقة غير الطريقة. وزاد الأمر بلاء، أنه زعيم مدرسة، وكبير رواة، حشدت ضدهم المدرسة الأخرى المناوئة، كل طاقتها في الجرح والتجريح.

عالجت الدراسة كل ما يتعلق بحماد، وكان تأثيره بارزاً في كل مرحلة تخطوها، وكان حماد يعيش حياً بين سطورها، ويتألق فذا كلما أمعنت الدراسة في البحث والتحقيق. ولا شك أن هذا الشعور الذي تدفق بين طيات الصفحات، كان يدرك مدى حيوية الرجل وقيمة عطائه. وربما كانت هذه الحيوية، وتلك الإيجابية هما أحد العوامل التي جَرَّأت الخصوم عليه، فأسيء فهمه، وبولغ في هدمه.

وتخلص الدراسة ـ وهي تأمل أن يشاركها في ذلك قراؤها والباحثون ـ إلى أن حماداً كان عملاقاً من عمالقة الرواية الشفوية، وأنه ذو عقلية متجددة آن الأوان لها أن تعود شامخة بين الشوامخ، فتأخذ دورها الريادي، كما أخذته إبّان ازدهارها ومجدها.

وإذا شئنا ـ بعد ـ أن ننصف الرجل، فما علينا إلا أن نعود من جديد ونجمع ما له من حسنات وفضائل، ونقابل بينها وبين تلك المثالب والتهم، على أن يكون رائدنا العدل والإنصاف، وسوف نجد أنفسنا ـ كما وجدت هذه الدراسة ـ أن التاريخ كان مغلوطاً، وأن الحقيقة كانت غائبة. فحماد كان راوية، صادق الرواية، صائب المنطق، ولم يكن لحانة، أو مصحفاً، أو مزيفاً، بل كان يروي سماعاً، وينقل حجة. وما دارت بخلده قط تلك الأفكار التي راودت غيره، خاصة دارسينا المحدثين، الذين جعلوا «الشعوبية» من خصاله، وما كان حماد شعوبياً، وما كان أبداً يحسب نفسه غير عربي، ولم يره معاصروه مولى متعصباً ضد العرب، ولم يقولوا ذلك ألبتة.

أما تهم الانتحال، التي فهمت على غير حقيقتها، فهي تهم لا تخضع للنقد والدرس. ولو أن النقاد تخلصوا من ريب الماضي، لاستدلوا على حقيقة روايته؛ فالرواية الشفوية ذات مظاهر شتى، أهمها التداعي، والاختلاط، والتداخل، والنسيان، والتوهم، وكل هذا كان يعرض له، لأن ذلك جزء من الطبيعة البشرية. فإذا ما انتقل الإنسان إلى مرحلة الكتابة والتدوين، ضعف الاعتماد على الذاكرة، وبدأ التحليل والترجيح. وحماد كان من رجال المرحلة الأولى، وهكذا تلقاها، وشاءت الظروف أن يمتد به الأجل، حتى مرحلة متأخرة، نافسه فيها رجال من المرحلة الثانية، فكان البون بين المرحلتين جد بعيد.

وعلى كل، فنأمل أن تفي هذه الدراسة بغرضها، وأن يجد القارىء في ثناياها ما يقنعه، أو يخفف من تحامله ضد الرجل.

ويسعدني أن أنوه بجهود الأستاذ الصديق الدكتور عبد الهادي الحاج عبدالله محمدين، الذي لم يأل جهداً في مراجعة الكتاب وإبداء الرأي. وهناك أيضاً الأستاذ الدكتور مصطفى حسين الذي كان لتوجيهاته أثر بالغ في تصحيح خطوات الدراسة وتقويمها. هذا بالإضافة إلى الدكتور الفاروق عمر عبد الرسول (القاهرة ـ المنيل) الذي تكرم علي بإرسال نسخة من الكتاب الذي صدر عن حماد لعبْد الحكيم مصطفى. فإليهم وإلى كل من شارك في عرض وجهة نظره، كل شكر وتقدير.

المؤلف